وله في مملوكٍ له توفي:

لا رغبة في الحياة من بعدك لي ... يا من ببعادك تدانى أجلي
إن مت ولم أمت أسىً واخجلتي ... من عَتْبك لي في يوم عرض العمل

وفيها توفي شهاب الدين قاضي دارا، [الذي كان][1] إلى ظلمه المنتهى.

السنة الثَّامنة والأربعون وست مئة

فيها في أَوَّل ليلة منها كان المصافُّ بين الفرنج والمسلمين على المنصورة، بعد وصول المعظم تورانشاه إلى المخيَّم مسك الإفرنسيس، وَقَتَل من الفرنج مئة ألف، ووصل كتاب المعظم إلى جمال الدين بن يغمور يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٥] ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

نبشِّر المجلس السَّامي الجمالي، بل نبشِّر الإسلام كافَّة بما مَنَّ الله به على المُسْلمين من الظَّفر بعدوِّ الدِّين، فإنَّه كان قد استفحل أمره، واستحكم شَرُّه، ويئس العبادُ من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ الآية [يوسف: ٨٧] ولما كان يوم الأربعاء مستهلّ السنة المباركة تَمَّم الله على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن، وبذلنا الأموال، وفرَّقنا السِّلاح، وجمعنا العُرْبان والمطاوعة، واجتمع خَلْق [عظيم][1]، لا يحصيهم إلا الله تعالى، وجاؤوا من كل فجٍّ عميق، ومن كلِّ مكانٍ بعيد سحيق، ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصُّلْح على ما وقع الاتِّفاق بينهم وبين الملك الكامل، فأَبَيْنا، ولما كان في الليل تركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم، وقصدوا دِمياط هاربين، فسِرْنا في آثارهم طالبين، وما زال السيف يعمل فيهم عامَّة الليل، وقد حلَّ بهم الخِزْي والوَيْل، فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللُّجج، وأما الأسرى فحدِّث عن البحر ولا حَرَج،

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

والتجأ الإفرنسيس إلى المُنْية، وطلب الأمان، فأمَّناه، وأخذناه وأكرمناه، وتسلَّمنا دمياط بعون الله وقوَّته، وجلاله وعظمته. وذكر كلاماً طويلاً.

وفي ثامن وعشرين محرَّم قُتِلَ المعظَّم تورانشاه.

وفيها وصل [ابن][1] العزيز صاحب بانياس منهزماً من مِصْر، نفاه تورانشاه، فلما دخل دمشق أُطلع إلى عزَّتا، فاعتقل فيها.

[وفي مستهل ربيع الآخر وصل الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز صاحب حلب إلى قارا يريد دمشق، فأرسل جمال الدين بن يغمور والقيمرية إلى عزَّتا، فأنزلوا ابن الملك العزيز إلى دمشق، وأسكنوه دار فرخشاه، وجاء عسكر حلب، فنزل القصير، وانتقلوا إلى داريا يوم السبت سابع ربيع الآخر، وزحفوا يوم الأحد ثامن ربيع الآخر إلى باب الصغير، وكان مسلماً إلى ناصر الدين القصري، وكان المجاهد إبراهيم في القلعة، فلما وصلوا إلى البابين كسرت الأقفال من الداخل، وفتحت الأبواب، فدخلوا، ونهبوا دار جمال الدين بن يغمور، وسيف الدين بن المشد، وعسكر مصر ودمشق، وأُخذت خيولهم من إصطبلاتهم، وأموالهم وأثاثهم من دورهم، ودخل ابن يغمور القلعة، ثم نودي بالأمان، وانقضت أيام الصالح أيوب بدمشق، وكانت مملكته الأخيرة لها خمس سنين إلا أياماً، ثم دخل الملك الناصر القلعة، وطيب قلوب الناس، ولم يغير على أحد شيئاً.

وكان الملك الناصر داود نازلاً بالعقيبة، فجاءه ابن الملك العزيز فبات عنده تلك الليلة، وهرب ابن العزيز إلى الصُّبَيْبة، وكان بها خادم من خدامه قد كاتبه، فوصلها، ففتح له، فدخلها.

وتسلم الملك الناصر بعلبك من الحميدي، وبُصْرى وصرخد، وغيرهما][1].

وفي ليلة الأحد ثاني شعبان كان النَّاصر داود في قصر القابون، والملك النَّاصر يوسف نازلاً في المِزَّة مريضاً، فبعث ناصرَ الدِّين القيمريّ ونظام الدِّين إلى داود، فأحضراه إلى المِزَّة، وضربوا له خيمةً، واعتقلوه فيها، واختلفوا في سبب اعتقاله على

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

أقوال: أحدها: أنَّه طلب دستوراً إلى بغداد، فأعطوه أربعين ألف دِرْهم، فأنفقها في الجُنْد، وعَزَمَ على قَصْدِ مصر، والثَّاني: أَنَّ الصَّالح إسماعيل جاءه كتاب من مِصْر، فأوقف شمسَ الدِّين لؤلؤ عليه، وأخبر حامله أَنَّه أوصل إلى النَّاصر داود كُتُباً، فسألوه فأنكر، والثَّالث: أَنَّ الصَّالح أشار عليهم بقَبْضه وقال: أنتم ما تعرفوه، نحن نعرفه، وأنتم على قَصْدِ مصر، وما هو مصلحة يبقى خلفنا، ولا يكون معنا. فقبضوه، وأقام في المِزَّة معتقلاً أياماً، ثم بعثوا به إلى قلعة حمص، فاعتقل بها، وأسكن أهله ووالدته وأولاده في خانكاه الصُّوفية التي بناها شِبْلُ الدولة الحُسامي عند ثورا.

وفيها سار الملك النَّاصر يوسف بالعساكر إلى المِزَّة يريد الدِّيار المِصْرية بإشارة شمس الدين لؤلؤ، فإنَّه لجَّ لجاجاً كان سبباً لحضور منيته، وكان يستهزئ بالعساكر المِصْرية، ويقول: آخذها بمئتي قِناع[1]. وكانت تأتيه كتب مِنْ مصر فيظنّها من الأعيان، وكانت من الرَّعاع، فدخلوا الرَّمْل، وقربوا من البلاد، وتقدَّم عسكر الشَّام، ومعهم جمالُ الدِّين بن يغمور، وسيف الدين بن المشد، وجماعة، وانفرد الشمس لؤلؤ وضياء الدين القيمري والتقوا، فانهزم المصريون، ونهبت أثقالهم، ووصلت طائفة من البحرية إلى الصَّعيد، وكانوا قد أساؤوا إلى المِصْريين، فنهبوهم، وارتكبوا كلَّ قبيح، وخُطِبَ في ذلك النهار في القاهرة والقلعة ومصر للملك النَّاصر، وفي جميع البلاد، وبات جمال الدين بن يغمور بالعباسة، وأحمى الحمام للملك النَّاصر، وهيأ له الإقامة. هذا والملك النَّاصر على ظاب كراع ما عنده خبر، وهو واقفٌ بسناجقه وخزائنه وأصحابه، ولما وقعت الهزيمة على المِصْريين ساق عِزّ الدين أيبك التركماني وأقطايا في ثلاث مئة فارس طالبين الشَّام هاربين، فعثروا في طريقهم بالشمس لؤلؤ والضياء القيمري، فساق شمس الدين [لؤلؤ][2] عليهم، فحملوا عليه، فأسروه، وقتلوا ضياء الدِّين القيمري، وجيء بشمس الدين لؤلؤ إلى بين يدي عز الدين، [فبلغني أن][3] حسام الدين بنَ أبي علي [قال:][2] لا تقتله لنأخذ به الشَّام، فقال أقطايا: هذا الذي

(١) القناع كان يلبسه المخانيث، وبذلك سيفسر ص٤١٥ ، من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين من (ش).

(٣) في (ت): فقال..، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

يأخذ مصر بمئتي قِناع؛ جَعَلَنا مخانيث. فضربوا عُنُقَه، واعترضوا طُلْب السُّلْطان، فخامر بعضُ العزيزية مماليكُ أبيه عليه، وجاء منهم جماعةٌ إلى عز الدين وأقطايا، وقالوا: إلى أين، هذا السلطان واقف؟ فعطفوا على الطُّلْب، وكسرتِ العزيزيةُ سناجقَ السُّلْطان، وكسروا صناديقه، ونهبوا ماله، ورموه بالنُّشَّاب، فأخذه نوفل البدوي وجماعةٌ من مماليكه وأصحابه، وساروا به إلى الشَّام، وعطف المِصْريون على المعظَّم ابنِ صلاح الدين، فأسروه بعد أن جرحوه، وجرحوا ولده تاج الملوك، وأخذوا أخاه النّصرة، والأشرف ابن صاحب حمص، والزَّاهر عمه، والصَّالح إسماعيل، وأعيان الحلبيين، ومات تاجُ الملوك بن المعظم من جراحةٍ كانت به، فحمل إلى القُدْس ميتاً، وجُرِحَ حسام الدين القَيْمري، فحمل إلى القُدْس، فمات به، وضُرب الشَّريف المرتضى في وَجْهه بالسَّيْف ضربةً هائلة عَرْضاً، وأرادوا قَتْلَه، فقال: أنا رجلٌ شريف، ابنُ عَمِّ رسولِ الله ﷺ، فتركوه، فقال الشريف: بقيتُ في الرمل يوماً وليلة ملقى رأسي ناحيةً، ووجهي ناحية، والدِّماء تفيض، ولولا أَنَّ الله مَنَّ عليَّ بالملك الصَّالح ابن صاحب حمص هلكت، حملني، وخيَّط وجهي بمسال، وعاينت الموت مراراً، وتمزَّق النَّاس كلَّ ممزَّق، ومشوا في الرِّمال أياماً.

وأما المِصْريون فإنهم دخلوا إلى القاهرة بالأسارى، والسناجق المقلبة، والطبول المشقَّقة، والخيول والأموال والعُدَد، ولما وصلوا إلى تُرْبة نجم الدِّين أيوب أخذوا بالصَّالح إسماعيل، وصاحوا: يا خوند، أين عينك ترى عدوك؟ ورموا الأسارى في الجباب، وجمعوا بين الصَّالح وبين أولاده أياماً، ثم غَيَّبوه وإلى هَلُمَّ جرا، ولم يصحَّ عنه خبر إلا ما تتحدَّث العوام بتلافه.

وأما المماليك، فمالوا على المِصْريين قَتْلاً ونَهْباً، ونهبوا أموالهم، وسَبَوْا حريمهم، وفعلوا بهم ما لا يفعل الفرنج بالمُسْلمين.

وكان وزير الصَّالح إسماعيل معتقلاً في جُبٍّ بالقلعة هو وناصر الدِّين يغمور وسيف الدين القيمري والخُوَارزْمي صهر الملك يوسف، فخرجوا من الجُبّ، وعصوا في القلعة، ولم يوافقهم سيف الدين القيمري، بل جاء فقعد على باب الدَّار التي فيها عيال التركماني، وحماها، فلم يدع أحداً يقربها، وأما الباقون فصاحوا: الملك النَّاصر يا

منصور. وجاء التُّرْك، ففتحوا باب القلعة، ودخلوا، فشنقوا وزير الصَّالح، وابن يغمور والخُوارَزْمي متقابلين، وشنقوا المجير بن حمدان، وكان شاباً حسناً، قالوا: تعدَّى على بعض المماليك، ونهب خيله.

ووصل الملك النَّاصر إلى غَزَّة، وأقام ينتظر أصحابه، فوصل إليه منهم مَنْ سَلِمَ من عسكر الشام، وابن صاحب المَوْصل.

وفيها توفيت

أرغوان الحافظية، عتيقة العادل[١]

وإنما سميت الحافظية، لأنها رَبَّتِ الحافظ صاحب قلعة جَعْبر، وكانت امرأةً عاقلة، مدبِّرةً، صالحة، وكانت مُدَّة حبس المغيث بن الصَّالح أيوب في قلعة دمشق تهيئ له الأطعمة والأشربة، وتبعث له الثِّياب، فحقَدَ عليها الصَّالح إسماعيل، فصادرها، وأخذ منها أموالاً عظيمة، وكانت الحافظية قد عمرت زمناً طويلاً، وكان بنو أيوب يحترمونها، ووقفت دارها بدمشق على خُدَّامها، وبنت بالجبل تُرْبة تحت ثورا على طريق عين الكرش، كانت بُسْتاناً للنجيب غلام التَّاج الكندي، فاشترته، وبنت فيه تُرْبة ومسجداً، ووقفت عليهما وقفاً.

تورانشاه بن الصَّالح أيوب، ويلقب بالمعظَّم[٢]

قد ذكرنا مجيئه إلى الشَّام، وذهابَه إلى مِصْر، واتَّفق كسرةُ الفرنج عند قدومه، فتيمَّن الناس بطَلْعته، [واستبشروا بمشاهدته][٣]، غير أَنَّه بَدَتْ منه أسباب نَفَّرت القلوبَ عنه، فاتَّفقوا على قَتْله، وكان فيه نوع خِفَّة، فكان يجلس على السِّماط، فإذا سَمِعَ فقيهاً يذكر مسألةً وهو بعيدٌ عنه يصيح هو: لا نُسَلِّم، واحتجب عن النَّاس أكثر من أبيه، وكان إذا سَكِرَ يجمع الشموعَ، ويضرب رؤوسها بالسَّيْف فيقطعها، ويقول: كذا أفعل بالبحرية.

---

(١) لها ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ٨/ ٣٥١، و«عيون التواريخ»: ٢٠/ ٤٦، و«نزهة الأنام» لابن دقماق: ٢٠٢، و«النجوم الزاهرة»: ٧/ ٢١، و«شذرات الذهب»: ٥/ ٢٤٠-٢٤١.

(٢) له ترجمة في «المذيل على الروضتين»: ٢/ ٩٥ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) ما بين حاصرتين من (ش).

ويسمِّي مماليك أبيه بأسمائهم، وأهانهم، وقدَّم الأراذل وأبعد الأماثل، ووعد أقطايا أنه يؤمِّره، ولم يفِ له، فاستوحش منه. وكانت أُمُّ خليل لما وصل إلى القُدْس مضت إلى القاهرة، فبعث يهدِّدها، ويطلب المال والجواهر، فخافت منه، وكاتبتْ فيه.

ذِكْرُ مَقْتله:

لما كان يوم الاثنين سابع عشرين محرَّم جلس على السِّماط، فضربه بعض المماليك البحرية بالسَّيْف، فتلقَّاه بيده، فقطع بعض أصابعه، وقام، فدخل البُرْج وصاح: مَنْ جرحني؟ قالوا: الحشيشية. قال: لا والله، إلا البحرية، والله لا أبقيت منهم بقيَّة. واستدعى المزيِّن، فخيَّط يده، وهو يتوعَّدهم، فقال بعضُهم لبعض: تمموه وإلا أبادكم. فدخلوا عليه، فانهزم إلى أعلى البُرْج، فأوقدوا النِّيران حول البرج، ورموه بالنُّشَّاب، فرمى بنفسه، وهرب نحو البحر، وهو يقول: ما أريد ملك! دعوني أرجع بنفسي إلى الحِصْن، يا مسلمين، ما فيكم مَنْ يصطنعني ويجيرني؟ والعساكر واقفة فما أجابه أحدٌ، والنُّشَّاب يأخذه، وكذا لما صَعِدَ إلى البرج رموه بالنُّشَّاب، فتعلَّق بذيل أقطايا، فما أجاره، فقطَّعوه قِطَعاً، وبقي على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخاً ما يتجاسر أحدٌ أن يدفنه حتى شَفَعَ فيه رسولُ الخليفة، فحُمِلَ إلى ذاك الجانب، فدفن. ولما قتلوه دخلوا على الإفرنسيس الخيمة بالسُّيوف، فقالوا: نريد المال، فقال: نَعَمْ. وأطلقوه، وسار إلى عكا على ما اتَّفقوا عليه معه. وكان الذي باشر قَتْلَه أربعة، [قال سعد بن مسعود بن تاج الدين شيخ الشيوخ: حكى لي رجل صادق أنَّ][1] أباه الصَّالح أيوب قال لمحسن الخادم: اذهب إلى أخي العادل إلى الحبس، وخُذْ معك من المماليك من يخنقه، فعرض محسن ذلك على جميع المماليك، فامتنعوا إلا هؤلاء الأربعة، فإنَّهم مضوا معه، وخنقوه، فسلَّطهم الله على ولده، فقتلوه أقبح قِتْلة، ومَثَّلوا به أعظم مُثْلة لما فعل بأخيه.

[وحكى لي الأمير][1] حسام الدين بن أبي علي [قال][1]: كان تورانشاه متخلِّفاً، لا يصلح للملك، كُنَّا نقول للصَّالح نجم الدين: ما تنفذ تحضره إلى ها هنا. فيقول: دعونا من هذا. فلحَّينا عليه يوماً، فقال: أجيبه إلى ها هنا أقتله!

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

[وحكى][1] عماد الدين بن دِرْباس [قال][1]: رأى بعضُ أصحابنا الصَّالح أيوب في المنام وهو يقول: [من مجزوء الرمل]

قـتـلـوه شَـرَّ قِـتْـلَـهْ ... صـار لـلـعـالـم مُـثْـلَـهْ
لـم يـراعـوا فـيـه إلًّا ... لا ولا مـن كـان قَـبْـلَـهْ
سـتـراهُـمْ عـن قـلـيـلٍ ... لأقـل الـنَّـاس أُكْـلَـهْ

وكانوا قد جمعوا في قَتْله ثلاثة أشياء: السيف والنار والماء، وخُطِبَ لأُمِّ خليل على المنابر بالقاهرة ومِصْر.

شمس الدين لؤلؤ بن عبد الله، مقدَّم عسكر حلب[2]

كان أميراً حسناً، صالحاً عابداً، زاهداً، مدبراً، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، [وقد كان يحكي واقعات جرت له، منها قوله عن بركة خان: أريد رأسه، فكان كما قال.

وحكى لي أنه][1] لما كان على حمص جاء، ومعه جماعةٌ من أصحابه إلى البحيرة، ومعهم مقلى وزيت يصيدوا سمكاً، فرموا الشبكة، فلم يصعد فيها شيء، قال: وكنتُ واقفاً على ظهر فرسي، فقلتُ: نرجع بغير شيء! وإذا بسمكةٍ كبيرة قد خرجت من الماء، وجاءت فوقعت بين يدي فرسي.

[وبلغني أنه قال: أنا سجدت سجدة في حلب أخذت دمشق، وأسجد أخرى في دمشق آخذ مصر. ومن هذا الجنس شيئاً كثيراً، وما كان يدعي ذلك كرامات، وإنما كان يخبر عن نفسه، وما به بأس أبداً، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] إلا أنه][1] قتل ـ رحمه الله ـ قتلة شنيعة، وبقي مدة لا يوارى، وكان قد لجَّ في الدُّخول إلى مِصْر [لجاجاً لا يداري، فغفر الله تعالى ذنبه، فإنه لم يزل غفاراً][1].

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ٢٤/ ٤٠٧، و«النجوم الزاهرة»: ٧/ ٢١ .

أبو الحسن المتطبِّب [السَّامري][1][2]

وزير الصَّالح إسماعيل.

وهو الذي كان سبباً لزوال دولته، وإخماد جمرته، وقد ذكرنا أخباره متفرِّقة في السنين، فسبحان مَنْ أراح منه المسلمين، وما كان مسلماً، ولا سامرياً، بل كان يتستَّر بالإسلام، ويبالغ في هَدْم شريعة المصطفى عليه الصلاة والسلام. قال له الشيخ إسماعيل الكوراني ـ رحمه الله ـ يوماً وقد زاره: لو بقيت على دينك كان أصلح [لك][1] لأنك تتمسك بدين في الجُمْلة، وأما الآن فأنت مذبذب، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. [وقد ذكره محمد بن سَعْد في قصيدته التي ذكرناها في سنة خمسين وست مئة][1]، وقد ذكرنا أَنَّه شُنِقَ، وعَجَّل الله بروحه إلى أسفل الدَّركات، وما كان شَنْقُه علواً في الحياة، بل خفضاً ولعنة في الممات، ولقد ظَهَرَ له من الأموال واليواقيت والجواهر والتحف والذخائر ما لا يوجد في خزائن الخلفاء ولا السَّلاطين، وأقاموا ينقلونه مدة سنين، [فبلغني أن][1] قيمة ما ظهر ثلاثة آلاف ألف دينار غير الودائع التي كانت له عند أصدقائه والتجار، ووجدوا له عشرة آلاف مجلَّد من الكُتُب النَّفيسة والخطوط المنسوبة، فتمزَّق الجميع في زمنٍ يسير، وأذهبه الله في نهابير[3].

السنة التاسعة والأربعون وست مئة

فيها عاد الملك النَّاصر [صلاح الدين][1] من غَزَّة إلى دمشق، وجاء عسكر مِصْر، فنزل غَزَّة والسَّاحل ونابُلُس، وحكموا على البلاد إلى الشَّريعة[4]، وجَهَّز الملك النَّاصر عسكره، وجاءته النَّجدة، وساروا إلى غَزَّة، وعاد التُّرْك إلى مِصْر، وأقام العسكر على غزة مدة سنتين وشهور، وتردَّدت الرَّسائل بينهم، وخرجت السنة والتي بعدها على هذا.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «عيون الأنباء»: ٧٢٣ـ٧٢٨ ، و«عيون التواريخ»: ٢٠/ ٤٧ ، و«نزهة الأنام»: ٢٠١ ، و«النجوم الزاهرة»: ٧/ ٢١ـ٢٢ .

(٣) النهابير: المهالك.

(٤) الشريعة: نهر الأردن.